السيميائيات والتحليل السياقي للمعنى

Semiotics and contextual analysis of meaning

د. بن مسعود محمد العربي

جامعة الجلفة

ملخص بالعربية:

يعالج هذا المقال تمظهر المفاهيم الدلالية السياقية في النظرية السيميائية وهذا ما يعكس في الحقيقة التضايف الحاصل بين السيميائيات وعلم الدلالة، كما انه يحاول رصد المتصورات السيميائية داخل النظرية السيميائية بشقيها المحايث والتأويلي، ومن هنا يتبوأر عملنا في الإطار المفاهيمي الإسبتيمي من جهة استجلاء المفاهيم وموضعتها في أطرها المعرفية الصحيحة ،ولاسيما أننا نلحظ استشكال هذه المفاهيم وتداخلها عند العديد من الباحثين إلي حد استعمالها استعمالا اعتباطيا لا يكاد يميز بين ما هو سيميائي وما هو دلالي، ومتى علمنا أن هناك فروق كبيرة بينهما علمنا ضرورة التميز بين المفاهيم حتى لا نقع في خلط علمي يحول دون تمثلنا للمفهوم اللساني بعامة والسيميائي بخاصة.

الكلمات المفتاحية: السيميائية ، المحايث ، التاويلي ، اعتباطي، دلالي ، سيميائي، سياقي ، سلوكي.

This article deals with the image of the contextual semantic manifestation in semiotics theory, which in fact reflects the relationship between semiotics and semantics. In particular, we note the problematic and overlapping of these concepts when many researchers to the extent of arbitrary use hardly distinguish between what is semiotic and what is indicative, and when we learned that there are big differences between them we learned the need to distinguish between concepts so as not to fall into For i scientific precludes the concept of Lingual represent us in general and in particular semiotic.

من المعلوم ((أن الجوهري في اللغة قدرتها على حمل المعنى))[1]. غير أن بعض الاتجاهات اللسانية لم تتحمس له طلبا لمبدأ العلمية، ورغبة منها في استحداث دراسة صورية للغة لا تتعارض أساسا مع المقولات البنوية المحايثة، بيد أن نزوعهم هذا في الوقت نفسه لم ينل رضاء العديد من اللسانين البنويين ذاتهم، ومن ثم وُصِّف ما نزعوا إليه ((بالنظرة السلبية))[2]. وعليه إن أية دراسة لسانية ستخطئ طريقها إن هي ولت بظهرها عن المعنى، أو حاولت اختزاله من صفحات درسها، ومن ثم هي أشبه ما تكون بلا معنى، إذ إن درجة مصداقية الدراسات اللسانية ونجاحها تحدده النتائج المحققة على مستوى المبحث الدلالي بالدرجة الأولى، وفي مدى إحداث تناسب بين ما هو لساني وما هو دلالي، لتكون ((اللسانيات هي تماما الدلاليات وليست مجرد مدخل إلى الدلاليات))[3]. وذلك ليس لشيء أخر سوى أن الغاية المثلى من اللغة حصول الإفادة بالمعنى.

يرى **بلوم فليد** أن ((المعنى هو النقطة الضعيفة في الدراسة اللسانية))[4]، لعدم وجود منهج علمي يتسم بالثبات بمقدوره الوقوف على هذه الظاهرة وقوفا صحيحا، وذلك لأن اللسانيات -في نظره- تفترض دراسة تجريبية تعتمد على الملاحظة المباشرة لمجمل الوقائع اللسانية، ومدام المعنى غير ظاهر للملاحظة فإن اللسانيات لا يمكنها بلوغ تخومه، ومن ثم فالعملية اللسانية تتلخص – حسبه- في جملة من السلوكات المتمظهرة بين المتكلم والمستمع يمكن ضبطها ضبطا علميا مباشرا، وهكذا يكمن البحث عن المعنى ضمن تصنيف سلوكي ظاهر، حيث إن الدلالة تكون

سهلة التميز من خلال حضور ما تحيل إليه، فدلالة الملح هي كلور الصوديوم، لكن لكي نملك القدرة على إعطاء دلالة علمية دقيقة للأشكال اللسانية قاطبة، وتاليا ينبغي أن نمتلك معرفة علمية دقيقة تستوفي الأشياء كلها التي تقع في عالم المتكلم. ولعل هذا ما يأسف لأجله **بلوم فليد** الذي يرى[5]أننا بعيدون عن امتلاك مثل هذه المعرفة. ذلك لأن تعريف الدلالة انطلاقا مما تحيل إليه في الواقع، يتطلب فيزياء علمية تستوفي الكون برمته، وفي الوقت الحالي لا يمكن الكلام عن الأشياء عمليا، فالناس يتكلمون دون أن يعرفوا حقيقة الأشياء التي يتكلمون عنها.

غير أن نجاح العملية التواصلية، لا يتطلب سوى أن كل فرد ينبغي أن تكون لديه معرفة تتصف بالشمولية حول الأشياء التي يتكلم عنها، فالمواضيع المبتذلة خلال عملية التواصل موجهة قصد معرفة المواصفات الأكثر شيوعا للأشياء المتكلم عنها، وليس خصائصها العلمية الخاصة بها التي ربما حضورها يثقل العملية التواصلية، ومن ثم عندما نطلب على سبيل المثال كلغ غرام من الملح من التاجر، فلا نهتم بالإشارة إلى التركيب الكيميائي للإنتاج اللهم إذا كنا ما نرغب في اقتناءه نشترط فيه أن يكون متوافرا على مادة اليود.

غير أن هذا لا يلغي نهائيا اهتمام **بلوم فليد** بالمعنى، ذلك أنه يفترض أن دلالة وحدة لسانية ما، تكمن في المقام التي يذكرها المتكلم فيه، والاستجابة السلوكية التي ينتجها المستمعِ. ومما لاشك فيهِ أَن هذه النظريةِ تضع في حسبانها عملية تعلم المفردا ت[6] عند الطفل (وحتى عند البالغِين). حيث يتم اكتَسَبها جراء ممارسة اجتماعيّة مستمرّة، بفضل العديد من تجارب استعمال الألفاظ في المقام، والتي يعمل المتعلم على تصحيحها وتداركها بطريقة متتالية عن طريق ما يسميه السلوكيون بطريقة الاختبارات والأخطاء.

يرتبط الفهم السلوكي للمعاني بنظرية المقام التي لا تكاد تخرج عن الأطر السيميائية العامة، ذلك أن السلوكيون لا يميزون بين السلوكات الصادرة عن الإنسان والحيوان على سواء، نتيجة المصادرات المخبرية التي ينطلقون منها، ومن ثمة فإنه ليس هناك اختلاف جوهري في المبادئ التي تحدد السلوك الحيواني والإنساني، ومن ثم دعت إلى بناء نظرية سيميائية عامة يمكن تطبيقها على العلامات كلها سواء أكانت مرتبطة باللغة عند الإنسان أم أنساق التواصل عند الحيوان.

وعلى هذا الأساس فإن النزعة السلوكية كانت ملجأ حذاقا للعديد من السيميائيين، يأتي في مقدمتهم **شارلز موريس**، الذي حاول تجديد النزعة السلوكية من خلال دمجها في رؤية عامة لعلم العلامات، انطلاقا من تصور سلوكي تداولي حاول ضمنه الجمع بين المفاهيم البلومفليدية والمفاهيم البورسية، فمعنى العلامة ((هو الخطة السلوكية التي هي منطوية عليها))[7]. وعليه إن معنى العلامة يتوقف على كيفية تمظهرها سلوكيا بالنسبة لنا. وذلك ما يظهر ضمن مثال المنعكس الشرط ي[8] الذي تمارسه الإشارة الصوتية أو الضوئية انطلاقا من إبانة أو إخفاء الغذاء عن الكلاب التي يسيل لعابها جراء ذلك، ومن ثم وصل **موريس** إلى تعريف سلوكي دقيق للعلامة، فإذا كان في غياب مثير – موضوع، يمكن لشيء

ما "أ" أن يثير سلسلة استجابات في عائلة سلوكية معينة بوصفه مثيرا استعداديا يستدعي تهيأ عضو ما للاستجابة في شروط خاصة عن طريق سلسلة من استجابات من هاته العائلة؛ فإن "أ" علامة.
وانطلاقا من هذا التعريف تتبدى الأبعاد السيميائية المكونة للعلامة، ذلك لأنه إذا حاولنا القيام بعملية إسقاط لهذه السيرورة السلوكية على مفهوم العلامة البورسي، يظهر بأن الكلب يقابل مفهوم المؤول؛ المؤول تهيأ الكلب والمعين الذي هو مرجع العلامة ضمن عالم غير لساني وهو الغذاء، المدلل ويمثل حسب المثال الشرط الذي يجعل شيئا ما قابلا للأكل.

يتضح مما سبق ذكره، أن هذه النظرية تراعي المواصفات المقامية الحافة بإنتاج العلامة اللسانية. ذلك لأنها تهتم بالسياق الفيزيائي والسياق النفسي[9]، حيث إنه يمكن اعتبار ادراكات الإنسان للسياق النفسي وأفكار عنه، على أنها استجابات طبيعية أو غير مشروطة لذلك السياق، وهي استجابات يمكن استثارتها بالعلامات، وبذلك فالعلامات تترابط مع أسيقتها ترابطا وثيقا إلى حد أنه لا تظهر معانيها إلا بها.

ولعل ذلك يتقاطع مع ما قد أشار إليه **فيتجتشتين** في غضون إعداد نظريته المسماة بقواعد الاستعمال والتي مؤداها "ليس للكلمة دلالة وإنما لها استعمالات وحسب" [10]حيث إنه لا يكون للكلمة معنى خارج السياق التي هي مودعة فيه.
وعليه إن السياق يرتبط بمجموع الشروط الاجتماعية بوصفها تضطلع بدراسة العلاقة الموجودة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللساني المُعين بوصفه سياقا اجتماعيا لاستعمال اللسان، ونقول سياق مقامي وسياق مقام بمعنى المعطيات المشتركة بين المرسل والمرسل إليه حول المقام الثقافي والنفسي والخبراتي لمعارف كل منهما حسب رأي[11] **جون ديبوى Dubois Jean**

ولهذا كله ترفض النظرية السياقية الاحتكام إلى دلالة العلامة وهي معزولة بمفردها، وبخاصة في العديد من الأمثلة التي تظهر ذلك، فالكلمات الأضداد مثل **الوثب** التي تدل على القفز كما يمكن أن تدل على الجلوس، وترادف في مثل[12] **حاد** و**مدبب** اللتان ليستا مترادفتان تماما مادامتا لا تملكان التوزيع نفسه، في المجموعات الثلاث المقدمة أدناه.

1- (منقار، ظفر، سهم، دبوس).
2- (ألم، أزمة، التهاب.نوبة)
3- (ذّكاء، ملكة، روح، قدرة، حاسة، فهم).

من خلال ما سبق لا يمكن القول مثلا "ذكاء مدبب" و" ظفر مدبب" ولا يمكن القول "نوبة مدببة" وإنما يقال نوبة حادة، ألم حاد وهكذا في الأمثلة الأخرى، وتاليا حسب الأمثلة السابقة، فإن النظرية السياقية تستفيد من الإجراء التوزيعي الذي يحدد السياق – حسبه - بوصفه[13] محيطا يحتوي مجموع الوحدات التي تسبق وحدة معينة وتليها والمسمى بالسياق اللفظي.

وهنا بما أن مفهوم السياق يقوم على التعدد، ألا ينبغي التعامل معه على أنه معطى سيميائي يتوخى مقاصد مختلفة، حيث يرتبط بما هو ظاهر متجلي أو مستتر مضمر سواء أتمثل ذلك في النشاط التلفظي وأجزاء العملية التواصلية، بما في ذلك مقام القول أو الشروط النسقية البنوية التي حاولت تحديدها بعض الاتجاهات اللسانية كالنظرية التوزيعية؟ ألا يمكن إذابة الحدود

الفاصلة بين هذه التوجهات داخل تصور سيميائي واحد، يستجمعها كافة في معطى علمي تعظم فيه أواصر الائتلاف وتخفت فيه شهوة الاختلاف؟

يشير **غريماس** إلى أن السياق يطلق على ((أي نص سابق أو مصاحب لوحدة استبدالية ذات قيمة، والتي تنبع منها الدلالة، والسياق يمكن أن يكون ظاهرا أو لسانيا أو مضمرا وموصوف، عن طريق واقع خارج لساني أو مقامي، ويمكن أن يُستغل السياق المضمر من منظور التأويل الدلالي، ذلك لأنه 1- إذا كان خاصا بلسان حي طبيعي منتج لنص محصور، فإن السياق المقامي يمكن أن يكون دائما ظاهرا 2- إن العناصر المضمرة في النص اللساني يمكن تشيدها بواسطة إحداث تماثل بين هذا النص ونص آخر غير لساني مستنبط من سيميائيات العالم الطبيعي))[14]. إن المعنى يتأتى من المقام اللساني الذي عكفت على دراسته السيميائيات السلوكية، ولكن المعنى المضمر لا يمكنه أن يتجلى إلا بإحالته إلى العالم الطبيعي حيث الدلالة يمكن إدراكها عن طريق الإدراك الحسي.

يظهر دور السياق في النظرية العاملية من خلال السيم السياقية أو الكلاسيمات التي يفهم منها توارد مجموعة من السيم تكتسب قيمتها في سياقها الخاص. فالسيمات السياقية [15]هي جزء من تجميع سيميم ما. وهذا ما يتطابق مع قولهم "الكلمة داخل السياق". لأنه يعتبر ((بوصفه وحدة للخطاب أعلى من الليكسيم ويتكون من مستوى أصيل ومن تمفصل جديد للمحتوى))[16]. إن هذا التمفصل الجديد هو الذي يحدد تعددية الأسيقة. إن الذي يضطلع بإحداث تناسب بين الليكسمات داخل الخطاب هو السياق. فمثلا سيم "**عين**" عند النظر إليه بوصفه معزولا أو "تعينيا" بمعنى أنه ثابت، فإنه يدل على **العين الناظرة**، لكن عند تواردها في سلسلة من الأمثلة، يمكن أن يكتسب قيما مختلفة تتحدد بالسياق.

1- عين تنضح بالماء.

2- عيني تؤلمني من أشعة الشمس.

3- فتحت عيناي بنصيحتك.

4- عين أحدهم ترقبني.

يظهر بجلاء من الأمثلة السابقة تعدد معانيها، لأننا نحتاج إلى قرءاه سياقية كي نفهم مرادها، و يظهر ذلك من خلال ما يحيط بسيم "عين" من وحدات، ذلك أنه في المثال الأول، "العين" تحيل إلى "منبع" ويظهر ذلك من كلاسيم "الماء"، كما أن دلالة هذه الملفوظة، في كليتها، تتحدد درجتها بحسب تنوع الأسيقة، بما في ذلك السياق الجغرافي، ذلك أنها مثلا تعني لسكان المناطق الصحراوية والمجتمعات البدوية مصدرا جديدا من مصادر العيش لهم ولماشيتهم، أما بالنسبة إلى سكان المدن والمناطق الساحلية فهي تثير لديهم معنى يرتبط بالذوق والجمال الطبيعي، وفي المثال الثاني فكلاسيم"تؤلمني" تكسب لفظ "العين" دلالة الحاسة والعضو من الجسم. أما في المثال الثالث تكتسب دلالة يمنحها إياها كلاسيم "نصيحتك"، والمثال الأخير يوضح أنها أخذت معنى عقلي يستفاد من كلاسيم "ترقبني". كما أنها ملفوظة لها دلالات تختلف من شخص لآخر كل حسب مقامه الاجتماعي، من سياسي ورجل أمن، تاجر، مجرم، الخ .

الهوامش

[1] - Henri Mitterand, initiation à la linguistique, éd Fernand Nathan, 1975, p. 135.

[2] - Ibid, p .135

[3]- Henri Mitterand, initiation à la linguistique p. 135.

[4]- Ibid, p.135.

[5] - Raymond Champagnol, Signification du langage, PU F, 1éd, 1993, pp 104-105

[6] - Mounin Georges**,** clefs pour la linguistique, Seghers, Paris, p.159 .

[7] - زكي نجيب محمود، حياة الفكر في العالم الجديد، دار الشروق، ط2، 1982، ص 126.

[8] - Mounin Georges, Introduction à la sémiologie, Minuit, Paris.

انظر كذلك « بالمر، علم الدلالة إطار جديد، تر صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، 1999، ص 33

[9] - عزمي إسلام، مفهوم المعنى – دراسة تحليلية- حوليات كلية الآداب، حولية السادسة، جامعة الكويت، 37. 1985 ، ص

[10] - Mounin Georges**,** clefs pour la linguistique, Seghers, Paris, p.185.

[11] - Dubois Jean et autre, dictionnaire de linguistique générale, librairie Larousse, Paris, p.120.

[12] - Mounin Georges, clefs pour la linguistique, p. 158.

[13] - Dubois Jean et autre, dictionnaire de linguistique générale, p. 120.

[14]- Greimas, A .J, et courtés, J**,** sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage, ED. Hachette, Paris, 1979 p.67.

[15]- Greimas, A .J, et courtés, J**,** sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage, p. 67.

[16] - Greimas, A .J, sémantique structurale, Paris, Larousse, 1966, p. 52.